٤ ـ القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

وكتاب النثر الفنى — أو النثر الفنى فى القرن الرابع إذا لم يختصر اسمه — بحث قدمه الدكتور زكي مبارك لينال به الدكتوراه من جامعة باريس، ولم يجد سبيلاً إلى جديد يقدمه فى بحثه إلا أن يبدىء ويعيد وينقص ويزيد فى تاريخ اللغة العربية وآدابها، وتاريخ الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها، ليثبت أن نشأة النثر الفنى جاهلية لا إسلامية. والنثر الفنى الذى يريد ليس هو نثر الخطب والأمثال والمحادثة، ولكن نثر الرسائل والكتب. فهو يزعم أن العرب فى جاهليتهم كانوا يكتبون الرسائل ويؤلفون الكتب[1]، ودليله فى هذا «أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبى عليه السلام حتى يتهم بأنه لفق القرآن مما نقل إليه من علوم الأولين» ذاكراً آية سورة العنكبوت (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذن لارتاب المبطلون) التى جعلها من سورة القصص. واحتج عليه المسيو مرسيه، فيما حكى فى كتابه عنه وعن نفسه، بأنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن فى آثار الهند والفرس والروم، فأجابه «بأن فقدان تلك الآثار لا يكفى لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود[1]، ثم زاد زكى مبارك بعد ذلك «على أن فى القرآن الكفاية وهو أثر جاهلى كما سنبينه بعد قليل»

وقد أنفق هذا القليل فى إنكار أن تكون النصوص النثرية المروية عن العصر الجاهلى صحيحة زاعماً أنها «مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية»

(١) الجزء الأول صفحة ٣٤

صلى الله عليه وسلم، وكان ممن اختاره لكتابة الوحى فائتمنه على أمر السماء، فبعيد على مثله أن يقصد إلى أمر يخالف الشريعة علانية كما زعم أولئك القوم، وقد كان له فى ذلك اجتهاد مقبول سنبينه، ولا يهمنا بعد ذلك أن يكون أخطأ فيه أو أصاب، لأن مثله إذا اجتهد فأخطأ عذر فى خطئه، ولم يكن لذلك مطعن فى حكمه، لأن مسائل الاجتهاد يرجع أمرها إلى الظن، ولا يعلم الخطأ فيها بيقين

ولو رجعنا إلى ما ذكره أولئك القوم لوجدنا أن منهم من ينكر ذلك الحكم لأنه يرى أن أبا سفيان لم يجتمع بسمية، وهذا تعنت ظاهر، لأنه لم يكن ما يدعو أبا سفيان إلى أن يكذب فى دعوى اجتماعه بسمية، وفى دعوى أنها علقت بزياد من اجتماعه بها، وقد كان زياد فى عهد عمر فتى ناشئاً لا خطر له، وكان لأبى سفيان من الأولاد من هو أجل منه خطراً ولو لم يكن له منهم غير معاوية لكفى، وقد صدقه على فى اجتماعه بسمية وأن زيادا من نطفته، ولكنه رأى أن ذلك كان فلتة لا توجب ميراثاً ولا تحل نسباً. والحق أن رأيه فى ذلك صحيح فيما كان منه فى الإسلام، لا فيما كان منه فى الجاهلية

ومنهم من ينكر ذلك الحكم لأنه يخالف قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالولد للفراش وللعاهر بالحجر. وهذا خطأ ظاهر، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بذلك فى زنا الإسلام لا فى زنا الجاهلية، ولهذا أقر كل ولد كان ينسب إلى أب من أى نكاح من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شىء منها. وقد ولد عمرو بن العاص بمثل ما ولد به زياد، فألحقته أمه بالعاص، ثم جاء الإسلام فأقر ذلك الإلحاق. ومنهم من ينكره لاتفاق المسلمين على إنكاره، ولأنه لم يستلحق أحد فى الإسلام مثله ليكون به حجة. ودعوى الاتفاق فى ذلك ظاهرة البطلان، وعمل معاوية مما يحتج به ولو لم يسبق إلى مثله، ولا يبقى بعد هذا إلا أن يقال إن حق زياد فى ذلك قد سقط بطول المدة، وبنسخ الإسلام لذلك النكاح الذى قام الاستلحاق على أساسه. ويمكن أن يجاب عن هذا بأن طول المدة قد اختلفت الشرائع فى تحديده وبأن الإسلام حين نسخ ذلك النكاح لم ينسخ آثاره

عبد المتعال الصعيدى

فأنكر مثلاً خطبة قس بن ساعدة الإيادى فى قوله : « وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفقين من أصحاب الحكمة فى عهد الجاهلية » وبعد أن مضى ينكر وينفى ويتهم بغير دليل قال « فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر فنى قبل الإسلام ؟ فليعلم القارىء أن لدينا شاهداً من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه وهو القرآن » ص ٣٨ ، ثم عقب على ذلك بقوله : « ولا ينبغى الاندهاش من عد القرآن أثراً جاهلياً ، فإنه من صور العصر الجاهلى ، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى من الكتاب والخطباء » . تأمل كلامه هذا جيداً وافهمه فى ضوء ما قدمنا لك فى المقالين السابقين وفى التمهيد قبلهما ، ثم تأمل قوله « وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى من الكتاب والخطباء » فإن لازم هذا الكلام أنها كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند النبى . وهذا تلميح كتصريح فى الوضوح . ثم مضى يتمم حكايته عن نفسه فقال :

« وقد قدمت هذا الشاهد للمسيو مرسيه الذى يرى أن النثر الفنى يبتدىء بابن المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد إلى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى إلى مخرج لطيف وذلك إعلانه أخيراً فى دروسه بالجامعة المصرية[1] أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن » ، وأنت ترى فى كلامه هذا مثلاً من شروده وعوج تفكيره ، لأنه كان يتكلم عن القرآن كنثر جاهلى فى زعمه ، فانتقل إلى الكلام عن القرآن هل هو نثر أو غير نثر ، كأنه لا يرى الفرق الهائل بين الأمرين . ثم استمر يتحدث عن رأى الدكتور طه فقال : « وقد بلغنى عنه هذه الكلمة وأنا فى باريس فحسبته يمزح ... فلما عدت راجعته فوجدته يصر على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينجو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قدم النثر الفنى عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن نتقض بعض ما يرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفرس واليونان » !

فهل رأيت أو سمعت بحمق كهذا الحمق الذى يريد أن ينفى عن العرب تهمة أخذ النثر الفنى عن الفرس واليونان فلا يرى سبيلاً إلى هذا إلا أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليرده أثراً جاهلياً يثبت لهم به ذاتية أدبية ؟ ! أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب ؟ إذا كان من عند الله فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالتى أراد وليس فيه لعربى منهم حرف ؟ وإن كان أثراً جاهلياً يثبت قدم النثر الفنى أى نثر الرسائل والكتب ، عند العرب ، فكيف يمكن أن يكون من عند الله ؟ إن هذا الرجل بين أن ينكر القرآن أو أن ينكر (نظريته) فى نشأة النثر الفنى ، كما يسمى فرضه الذى افترض ، ليس له عن أحدهما محيص

وإن أردت مثلاً آخر فاقرأ له قوله بعد ذلك : « القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ولو كره الكابرون . فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب ! » أرأيت استدلال الدكتور البحاثة على وجوب وضع القرآن فى العهد الجاهلى ؟ الإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يمكن أن ينسب القرآن إلى العهد الإسلامى ، وإذن فالقرآن كان موجوداً قبل الإسلام ما دامت نسبة القرآن إلى العهد الإسلامى غير ممكنة ! هذه هى نتيجه منطق الدكتور . وهذا طبعاً يستلزم أنه يفرق بين القرآن وبين الإسلام ، إذ لو كان القرآن والإسلام شيئاً واحداً عند الدكتور لكان القياس الذى بنى عليه حجته السابقة هو أن القرآن لم يكن موجوداً قبل القرآن ، وإذن فلا يمكن أن ينسب إلى العهد القرآنى ! وهو قياس كما ترى لا يليق أن ينسب إلى دكتور

(١) الكتاب المنقود طبع سنة ١٩٣٤

وللدكتور دليل آخر على أنه « لا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية » ذكره فى قوله عقب ذلك « وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) وتلك إشارة تلوح بها لمن لا يكفيهم النطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبى قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان » ص ٣٩

وملخص هذا الدليل أن القرآن صورة صحيحة لنثر الجاهلية الفنى لأن المشركين كانوا يفهمونه ويستسيغونه . ولازم هذا إن صح ، أن الجاهليين لم يكونوا ليفهموا ولا ليستسيغوا نثر ابن سلام والجاحظ ، ولا نثر سهل بن هارون وعبد الحميد وابن المقفع ، ولا نثر الخوارزمى وابن عباد وابن العميد ؛ بل ولا شعر جرير والفرزدق والأخطل وبشار وابن الرومى والبحترى ، لأن شعر هؤلاء ونثر أولئك إسلامى لا جاهلى ، فإذا هم فهموه واستساغوه كان فى منطق الدكتور جاهلياً لا إسلامياً ، كأن تعريف الأدب الإسلامى عند الدكتور هو ما لا يمكن أن يفهمه أو يستسيغه الجاهليون !

لكن عدّ عن هذا وارجع إلى تلك القطعة من كلام صاحب النثر الفنى ففيها ما هو أهم من هذا كله فى ما نحن بصدده . اقرأ قوله : « وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبى قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم » ، وامض إلى آخر القطعة ، ولاحظ استبعاده أن يقصد النبى إلى الإغراب أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب ، واذكر أن هذا كله قاله صاحب النثر الفنى فى مقام الكلام عن القرآن وموافقته لغة العرب . ألا ترى أن ذلك القول منه أقرب ما يكون إلى التصريح بأن القرآن من كلام النبى ، حدث قومه به وتجنب فيه الإغراب عليهم فى الألفاظ والتعابير لم يقهرها عما يألفون ؟ إن الرجل صاحب رأى فى القرآن ، وبأبى هذا الرأى إلا أن يظهر فيما يكتب وما يسوق من استدلال

ويمضى الرجل إلى آخر الشوط فى استنتاجه من فرضه الذى افترض من أن القرآن (أثر جاهلى) فيزعم للعرب فى الجاهلية (نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية) كان الإسلام تاجاً لها[1] ، أى أن الإسلام كان نتيجة وتماماً لتلك النهضة لا سبباً لها . اقرأ تعليله بعد إن شئت : « لأنه لا يمكن رجلاً فرداً مثل النبى محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث استطاع رجل واحد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوربا فى زمن وجيز . ولو كان يمكن أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبى محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا ، لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض » ! فانظر إلى صاحب هذا الكلام كيف يسوى بين الأنبياء فى كل شىء وبين الأديان ، وكيف يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول من دين ، ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب كل ما فعله النبى هو أن نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا فى القارات الثلاث فى زمن وجيز ! وتاريخ نشأة العلوم والآداب فى الأمة العربية بعد الإسلام معروف ، كما أن مقاومة العرب للنبى ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ، لكن الرجل ينكر التاريخ ، ويفترى تاريخاً آخر ، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم فى منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النبى ، كلام محمد العربى لا كلام الله . عندئذ فقط يعقل أن يكون العرب على ما وصف الدكتور زكى مبارك من نهضة وعلم وأدب ، لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم وأدب ، ولا يعقل إن كان كلام بشر أن يأتى به صاحبه فى أمة جاهلة كالتى أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شرقيين ومستشرقين ، ومؤرخو الإسلام .

(يتبع) محمد أحمد الغمراوى

(١) الجزء الأول صفحة ٤٨